

الأستاذ. حمدوش رشيد

جامعة الجزائر

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم علم الاجتماع

محاولة اقتراب جديدة لتفسير العلاقات الاجتماعية

والرباط الاجتماعي للواقع الجزائري المعاصر

لقد ساهمت العديد من المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية في إعادة صياغة مفهوم العلاقات الاجتماعية بمعنى السعي لإعادة بلورته وشحنه بالدلالات التي تحمل وتختزل مختلف مظهراته وتضع حداً للعمومية والضبابية التي قد يتميز بها.

ويتمثل مقترحنا في محاولة فهم التمثل الحضري الجديد من العلاقات الاجتماعية المعاصرة التي تسود المجتمع الجزائري المعاصر (الحالي) على ضوء نموذج الثنائيات المتضادة أو المتناقضة التي جاءت مع عدة مفكرين خاصة منهم فرديناند تونيز F.Tonnies، ا. دوركايم، فيبر، ج. زيمل وآخرون. وسوف يعتمد خاصة على ثنائيي ف. تونيز "الجماعة المحلية" (العشيرة) و"المجتمع" "Société"/"Communauté"، التي نراها الأكثر ملائمة لتحليل المجتمع الجزائري الحالي الذي لازال يعاني من "تقليديته" (محليته) والتي لم يتخلص منها بعد، وفي نفس الوقت يتطلع أغلبية أفراده، خاصة الفئة الشبانية منه أو جيل الشباب والذي يمثل أكثر من نصف المجتمع إحصائياً، إلى الانتقال إلى المجتمع التعاقدي (الحديث) (*). كل هذا بالطبع سيتم معالجته في ظل إشكالية التقاليد والحدثة. إن اقتراحنا لهذا المسعى، يأتي بعد تفكير عميق وتأمل لما جاء في مختلف الأدبيات السوسيولوجية عند المفكرين وعلماء الاجتماع الذين تناولوا مواضيع شتى بالدراسة وفق نظريات واقتربات جفة، هكذا محاولين القيام بإسقاطات لهذه النماذج النظرية والاقتربات على الواقع الجزائري، كأن هذا الأخير لا يختلف عن تلك الوقائع التي أنتجت فيها هذه النظريات والاقتربات. إن المتاهة والتيه (dilemme) الكبيرين إن صح التعبير، الذي نتخبط فيه البحوث في العلوم الاجتماعية هي في محاولاتها إعطاء والخروج بتقارير "علمية" و "موضوعية" حول وقائع "ذاتية". إن ما يميز سواء الفرد المعاصر، أو الفرد ماقبل الفردانية إذا جاز التعبير، وذلك في مجال كمجال الفهم الاجتماعي لهؤلاء الأفراد والمعنى الاجتماعي الذي يحملونه، وإن ما يميز هؤلاء (النمطين من الأفراد) تميزاً جذرياً هو في الأساس تلك القاعدة التي تنأسس عليها تكوينيتهم وتركيبيتهم كأفراد، بمعنى ذاتيتهم (Subjectum). فالملاحظ مثلاً عند تحليلات مواضيع سواء المتعلقة بالتربية والثقافة، الاقتصاد، الاجتماع أو السياسة إلخ...، هو صيها وتفسيرها وبالتالي تصنيفها لهذه المواضيع حسب أحد النموذجين أو النمطين:

بحوث محاولة اقتراب جديدة لتفسير العلاقات الاجتماعية والرباط الاجتماعي للواقع الجزائري المعاصر

التقليدي أو الحديث. في حين نرى بأنه من الموضوعية بمكان إرجاع الأمور إلى نصابها، وبالتالي اقتراح شبكة ونموذج لتحليل موضوع العلاقات الاجتماعية المعاصرة يأخذ بعين الاعتبار النمطين: المحلي (الجماعي أو التقليدي)، والنمط الحديث (المجتمعي). فمن خلال ملاحظتنا اليومية والمستمرة، توصّلنا إلى أنّه يستحيل أن يتواجد النمط الحديث (المجتمعي) بدون التقليدي (المحلي أو الجماعي). فبالنّسبة لسلوكات الأفراد وتصوّراتهم نجد أنّها تتأرجح بين هذا النموذج وذاك: سلوكات وتصوّرات تتمّ على شكل ذهاب وغياب، بين سلوكات وتصوّرات حديثة (مجتمعية) لكن بالرجوع إلى الماضي والالتفاتة إليه (المحلي والجماعي)، بحيث تصبح هذه العملية التفاعلية بين النموذجين، عملية ضرورية، وزيارة الماضي (المحلي/الجماعي) عملية ضرورية هي الأخرى وهي عملية لا مفر منها لإضفاء الشرعية على كلّ فعل أو تصوّر.

إنّ عملية الفهم هي أولاً وقبل كلّ شيء العمل على التقرب من تلك المنطوقات التي يحملها الفاعلون أي محاولة التقرب من ذاتيتهم. ممّا يؤدي بنا إلى التصريح بنقطة مهمة جدّاً في نظرنا ألا وهي: ما هو حظّ الذات في التفسير للوصول إلى الموضوعي؟ عبارات أخرى، ألا يجب الاعتماد في التحليل (للعلاقات الاجتماعية) على المستويين الكلّي والجزئي أو المجهري معاً؟ من هنا جاءت الفكرة لاستغلال ما جاء في أدبيات علم اجتماع الحياة اليومية، خاصّة ما جاء في أعمال أنتوني غيدنس A. Guiddens وتفسير هذا الأخير وقراءته لعمال أرفين جوفمان E. Goffman، أو ما سمّاه الطريق الثالث (The third way). فكما هو معلوم، فإنّ الرباط الاجتماعي ومنه العلاقات الاجتماعية هي قبل كلّ شيء عملية اتصالية: ما يربط الأفراد فيما بينهم مثل اللّغة مكتوبة كانت أو شفوية، الكلمات ومعانيها. لكن ما يجب أن يُفهم هو أنّ العملية الاتصالية ليست فقط أفعال وكلمات وتصرف فحسب، لكن هي كذلك مواقف، حركات، سلوكات، تحفّظات وتدخّلات/تداخلات.

إنّ الفكر السوسيولوجي والأنثروبولوجي يقترح علينا محطات وطرق جديدة. فعند إعادتنا لقراءة وتصفح تاريخ العلوم الإنسانية، فإنّنا نحن بصدد البحث على الهامات جديدة وكذا محاولة التأسيس لنماذج جديدة والعمل على إعطاء مسارات واتجاهات جديدة. فالكثير من المراجع والأدبيات تحاول التلخيص والقيام

بعملية تركيب لأكبر الاتجاهات الفكر السوسيولوجي وتعمل بذلك على إنتاج أطر جديدة للتفكير والتحليل وذلك باستعمال مختلف شبكات تحليل علم الاجتماع المعاصر، كأعمال علماء الاجتماع المعاصرين أمثال فرنسوا دوبي F.Dubet (علم اجتماع التجربة) (Sociologie de l'expérience) وأعمال قسي. باجوا Guy Bajoit (علم الاجتماع العلائقي) (Pour une sociologie relationnelle).

وكما سبق وأن اشرنا، فإن موضوع علم الاجتماع في نظرنا يتكون ويجمع في نفس الوقت بين الموضوعي والذاتي. مما يؤدي بنا إلى القول كذلك بأن ما هو ناجع في مثل هذا التفكير والاقتراب هو حثه لنا لمحاولة الفهم الداخلي للظواهر الاجتماعية: فمثلا، ماهي الأشكال التي تتخذها العلاقات الاجتماعية بين تلك القيم المرتبطة بالضمير (الوعي) الجماعي وتلك القيم الحديثة للمجتمع؟ وتجدد الإشارة هنا، بأننا لا نسعى بأي حال من الأحوال إلى مجاهدة (مواجهة) أو مقابلة النمطين أو النموذجين من الوجود والتواجد والتي تعرف وتصور على أنها "حديثة" أو "تقليدية"، لكن هدفنا هو محاولة الرصد لتطورات وذكريات الماضي، (بالرغم من غموضها وعدم وضوحها) وتداخلها في المعاش والحياة اليومية الحالية للأفراد. إن الغرض من هذا الاقتراب المقترح للمشكلة، هي محاولة تصوير وتوضيح لتلك الأشكال الاجتماعية للعلاقات الاجتماعية المعاصرة ومنه للأشكال الاجتماعية للرباط الاجتماعيين أين يتداخل فيها (أي في تلك الأشكال الاجتماعية)، زمن الحاضر بزمن الماضي، يتقاطعان، يتساحان ويتعارضان. هذا ما قد يعطي معنى لتلك التناقضات والازدواجية للأشكال (المعاني والتصورات) التي تميز مجتمعنا الجزائري المعاصر وواقعه، وهذا تماما سيزودنا وسيشكل أحد التفسيرات والتأويلات الممكنة للعلاقات الاجتماعية المعاصرة به.

ما يمكن إضافته كذلك هو أن أفراد اليوم يرفضون تلك الصورة الواحدة الموحدة والنسخة المتكررة التي يريد أن يلحقها بهم البعض وبالتالي فإن صورة "العالمية المجردة" لا مكان لها. كما أن الصورة التي توحى بـ "الجماعية / المحلية" بمفردها هي الأخرى لا مكان لها من الإعراب - لوحدها-، بحيث يرفض الأفراد تلك الصورة كذلك التي تجعلهم حبيسوا جماعاتهم ومجموعاتهم الأصلية أو مرجعياتهم المحلية فقط، بحيث يتعارض هذا النمط وهذه الصورة مع تلك الفكرة

بحوث محاولة اقتراب جديدة لتفسير العلاقات الاجتماعية والرباط الاجتماعي للواقع الجزائري المعاصر

التي تجعل من هؤلاء الأفراد، أفراداً يتمتعون بحقهم في التفرد والاختلاف، الاتصال والانفصال.

هذا ما يجعلنا نصرح بالقول بأنه حان الأوان إذا لرسم واقع جديد وشبكة جديدة لقراءة الرباط الاجتماعي ومنه العلاقات الاجتماعية بتداخلها في الواقع الجزائري المعاصر، شبكة ونسيج يمزج بين حرية كل فرد مع الاحترام المتبادل. بعبارة أخرى، نموذج يمزج بين "نحن" يحترم مجموع "أنا" في إطار حرياتهم وكذا هوياتهم المعقدة والمركبة.

فما نحضر إليه حالياً في المجتمع الجزائري المعاصر بخصوص الرباط الاجتماعي هو أن هذا الأخير لا يمكنه أن يأخذ ويحمل نفس الصورة التي كان يحملها الرباط الاجتماعي التقليدي. لأن بكل بساطة، أفراد اليوم لا يشبهون بأي حال من الأحوال الأفراد أو المكونات البشرية التي تتكون منها المجتمعات التقليدية الشمولية (holiste).

فالمجتمع الحالي، هو عبارة عن تركيبة لأفراد قد تمت عملية فردانيتهم أي عملية إضفاء الفردانية عليهم، في حين أنه في المجتمعات التقليدية الشمولية كان يجمع بين أفراد كانت تجمعهم وحدة منذ وجودهم وتواجدهم.

إن النموذج الذي نسعى إليه والمسمى الذي نريده يرتكز على مبدأ الرفض المضاعف والمزدوج: من جهة، مبدأ يرفض التفسير على أساس الكل الجماعي (refus d'une explication sur la base du tout communautaire)، أي رفض لذلك النموذج الذي يعبر عن الكل الجماعي أو التجذر في الجماعة المرجعية فقط؛ ومن جهة أخرى، مبدأ يرفض هو الآخر ذلك التفسير الكلي على أساس مجتمعي - تعاقدية تحت (refus d'une explication basée sur le tout sociétaire).

ومن هذا المنطلق الاستيمولوجي لمبدأ الرفض المضاعف جاء مقترحنا الذي يحدد تفسير العلاقات الاجتماعية المعاصرة في المجتمع الجزائري اليوم، ومنه واقع الرباط الاجتماعي في ملتقى تقاطع النمطين الجماعي / والمجتمعي، المحلي (الخصوصي) (spécifique) / والعالمي (التعاقدية/الحديث) (l'Universel)، أو الطريق الثالث على منحنى ومسعى أنتوني قيدنس الذي أشرنا إليه فوق وذلك في كتابه "النهج / الطريق الثالث" "The third way" (*) أين يعرض قيدنس

اشكاليته حول أشكال التنظيم الاجتماعي للحياة الاجتماعية على ضوء عاملي المجال والزمان والتي تفرض مقارنة لعلاقات معقدة ومتشابكة بين المخلفات المحلية أو الظروف وسياق الفعل، والتفاعل عن بعد أي لعلاقات أكثر شمولية بين الحضور والغياب. ويستطرد قيدنس ويقول بأن تلك التحولات التي تحدث على المستوى المحلي فهي جزء لا يتجزأ من تلك العولمة التي هي بالفعل عملية معقدة تتأسس وتنظم على إثرها وعلى أساسها الشبكات العلائقية (1).

وفيما يخص الواقع الجزائري والعولمة مثلا، يمكن القول أن الآثار المزدوجة للعولمة وللخصوصيات السياقية الثقافية والاجتماعية، تؤدي لا محالة إلى أشكال اجتماعية ذات خصوصية أين يتداخل فيه وبقوة الشمولي والمحلي بطريقة ضمنية وباطنية ومعقدة ولكن بطريقة يميزها الصراع.

إن محاولة معرفة العناصر التي تتأسس عليها السلوكات الحالية للأفراد ليست بالمهمة السهلة، خاصة في مجتمع، كالمجتمع الجزائري الذي تبقى فيه المسائل الهوياتية حاضرة دائما وبقوة حتى وإن أخذت أشكالا متنوعة وحسب الوضعيات المختلفة التي تطرح فيها.

ونتفق تماما مع المقولة والمعاينة التي قام بها ز. بومان Z.Bauman حين يشير إلى أن نوعا جديدا من المجتمع مازالت ملامحه غير واضحة قد ظهر إلى الوجود. وما يشهده المجتمع الجزائري حاليا، هو ذلك الانتقال من مجتمع يتهيكل حول المحلية والأهلية، إلى مجتمع يتميز بالانفتاح والتعدد، كما أبرزه تونيز الذي تمت الإشارة إليه هو الآخر، قلت الاختلاف الذي أبرزه تونيز بين الشكليين من زاوية تطويرية تبرز المجتمع Société كنتيجة للبناء الاجتماعي الأول الجماعية/ العشيرة Communauté، ويهمنا هذا الانتقال في هذا المجال خاصة الانعكاسات على البنى والتصورات الاجتماعية للأفراد ومنه على النموذج الحضري للعلاقات الاجتماعية المعاصرة للمجتمع الجزائري.

إن هذا المسعى إذاً يسجل هذه الروابط الاجتماعية ومنه العلاقات الاجتماعية المعاصرة كتعبير عن تلك الحرية الفردية التي تحاول التوفيق (la conciliation) بين الفردي والجماعي، حتى وإن دل هذا على هشاشة أو ضعف هذا الرباط، فهذا لا يعني بأن هذه الهشاشة هي في طريقها لإيجاد "الحل". وهذا

بالطبع ليس هدفنا، لكن ما نريد الوصول إليه هو أن هذا النموذج الذي تنسج خيوطه وتهندس هياكله في المجتمع الجزائري، يعمل بالطريقة التي تجعل من الفردانية مسار وعملية علائقية. بمعنى آخر، فإن الرباط الاجتماعي في واقعنا لا يجد معناه ولا دلالاته إلا إذا توصل إلى تحقيق الانسجام بين مختلف الهويات الفردية المكونة له والمرتبطة به، أي يجب على "النحن" (الجماعة/ والمجموعة معا) أن يحترم ومنه يعترف بمجموع "أنا" (الأفراد) المكونة له. بعبارة أخرى، فلا وجود للجماعي في غياب الذاتي، بحيث مجموع الذوات هي المكونة للجماعي. فالعلاقات الاجتماعية ومنه الرباط الاجتماعي كما نراه هو عبارة عن تلك المعادلة التي تجمع بين الإحساس، المشاعر والعقل أو الحكمة: فلا يمكن لهذا الرباط أن يتخلى مثلاً عن تلك الإحساسات والمشاعر (الذاتي) ليتبع العقل وحده أو بمفرده (الجماعي)، خاصة عندما يريد الأفراد نسج علاقات في المجال أو الفضاء العمومي. باختصار، يمكن القول بأن النموذج الذي قد يساعدنا في تحليل العلاقات الاجتماعية المعاصرة في المجتمع الجزائري الحالي، هو نموذج مستوحى من المعاش اليومي للأفراد والذي يشكل ذلك المزج بين العالمي والخاص (الشخصي) أو المحلي. ولا شك بأن ما أفرزه في نظرنا النمط بهذا الشكل، هي تلك الطريقة المتمثلة في البيداغوجية التي سطرها وهندستها الأسر المعاصرة عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية، بحيث أن الفردانية المتحدث عنها فوق وبكثافة لا تتعارض مع الجماعية، كما لا تتعارض الجماعة (أو المحلية) مع المجتمع (التعاقدية أو مع العقل *raison*). وتتمثل تلك البيداغوجية (التنشئة) المستثمرة كذلك في المزج بين عدة أنماط وأنواع من الفردانيات: فبالإضافة إلى تلك الفردانية التي تمتاز ويطبعها التنافس، والتي تنقل وتشرب للطفل وذلك بغرض غرس روح النجاح فيه، يمزج نوع آخر من الفردانية ألا وهي الفردانية العلائقية، أي ترسيخ ذلك الاحترام الذي يجب أن يتحلى به الطفل تجاه الأفراد الآخرين من الأسرة ومن المجتمع ككل.

فعملية الفردانية التي كثر الحديث عنها لدى الكثير من المفكرين والباحثين الذين تناولوا هذه المسألة بالدراسة، لا يمكن اعتبارها المبدأ الوحيد أو النموذج الوحيد الذي يجب أن تقام عليه التحاليل وتبنى عندما يتعلق الأمر بمحاولة فهم العلاقات الاجتماعية ومنه الروابط الاجتماعية في المجتمع الجزائري المعاصر، كما لا نرى سبيلاً ومبرراً لتلك التخوفات التي يبديها الكثير عندما يتعلق الأمر بالفردانية

المسيطرة والتي تطبع الكثير من سلوكياتنا. فهناك مبادئ وأبعاد أخرى، يمكن لها هي الأخرى أن تشكل رهانات لاتقل أهمية بالنسبة للعملية التربوية والتنشئية على العموم. فالنموذج الذي نريد تصويره وتوضيحه لا يرمي إلى منطق تغليب بعد أو مبدأ على آخر: الجماعي/المحلي على مبدأ المجتمعي/العالمي، أو مبدأ التقليدي على الحديث. لكن وكما لاحظناه من الميدان ومن المعاش اليومي، فنموذج العلاقات الاجتماعية ومنه التصورات والتمثيلات التي تطبع الأفراد في المجتمع الجزائري، هو نموذج توفيقى لكل هذه الأبعاد: توفيق وترتيب أو تصنيف للجماعي (المحلي، التقليدي) والمجتمعي (العالمي، الحديث). فردود الفعل المجتمعية والحديثة لا يمكن لها أن تتواجد بدون تلك الردود الفعلية الجماعية المحلية والتقليدية. فمنطق تغليب نموذج على آخر لا مكان له من الإعراب في المجتمع الجزائري المعاصر: فنموذج التنشئة الاجتماعية التقليدية هو الآخر لا يمكن اعتباره حلا. فـ"الشباب" بمختلف فئاته، باعتبار هذه الفئة، فئة متباينة، وكذا فئة الراشدين أو البالغين، هم عبارة عن أفراد مختلفين عن شباب الأمس، مما يستدعي شكل وسبل تنشئية أخرى غير تلك التي تعرضت لها الأجيال السابقة (جيل الآباء مثلاً). وبالتالي فالنموذج السلوكي الثقافي (Le modèle comportemental culturel)، ومنه الرباط الاجتماعي الذي هو في طور التشكيل في المجتمع الجزائري الانتقالي، هو ذلك النموذج الذي يحترم الأفراد بفردانيتهم وتميزهم: الفردية والتميز (originalité/individualité) في إطار الجماعة. ونكرر هنا، بأن ملامح هذا الرباط الذي هو في طور التشكيل هي ملامح لازالت تشوبها ضبابية وغموض. وعند الحديث عن الفردانية، لا ينبغي أن يفهم من هذا الكلام بأن الأفراد المعاصرين بحكم فردانيتهم، يرمون ويريدون البقاء لوحدهم أو البقاء معزولين عن باقي المجتمع. فمثلاً تكوين أسرة نووية أو زواجية وبالتالي الانفصال عن الأسرة الكبيرة أو الممتدة، أو الاختيار الفردي للزوج أو الزوجة أو الزواج خارج الإطار الأسري الذي نشهده حالياً في مجتمعاتنا، قلت هذا لا يعني انسلاخ وتنكر للتقاليد ولنظام الجماعة، كما أنه في نفس الوقت لا يعني كذلك انصياع وراء كل ما هو حديث، بل يجب أن ينظر إلى سلوكيات هؤلاء الأفراد المعاصرين (جيل الشباب) على أنها سلوكيات توحى بحب هؤلاء وسعيهم إلى اكتساب عدة مرجعيات تفادياً منهم لكل سلوك وروابط واحد، موحد ووحيد. وبهذا نجد أنفسنا أمام وضعية تتميز

بالعقلانية المتعددة، وهذه العقلانية هي التي يمكن أن تفسر مدى قدرة المجتمع على المحافظة على توازناته بل وتوظيف ممارسة التعدد من أجل محافظة المجتمع على قدرته على التجدد والاستفادة من التنوع. ولعل ما يفسر التعدد المرجعي للفرد المعاصر هذا بالإضافة إلى عملية التنشئة الاجتماعية التي تقولوا عليها، نجد بأن هؤلاء الأفراد بحكم انتمائهم إلى عدة مجموعات في نفس الوقت وذلك وفق المكانة والأدوار والوظائف التي يقوم بها كل فرد على الساحة الاجتماعية، وهذا ما يبرز كذلك ثراء الأنا أي قدرة هذا الأنا على التكيف والاستفادة من مختلف تعدد المجموعات التي يتشكل منها المجتمع. فبالإضافة إلى الهوية المركزية للأنا، نجد بأن - الأنا - أنا الفرد يتشكل من عدة أجزاء ومنه من هويات فرعية تتفاعل وتتداخل مع تلك الهوية المركزية للأنا، هذا ما يفرز التعدد المرجعي ومنه التعدد في السلوك والتصور معا.

ولعل كذلك ما يمكن أن تفسر به هذا التعدد المرجعي والهوياتي للأفراد، هو تميز القرن الأخير بثورتين هامتين تشملان مجال الهندسة الوراثية والثورة المعلوماتية، وتكمن الأهمية في حدود هاتين الثورتين، حيث تلغى الحدود والمجالات الضيقة والفضاءات المغلقة أمامها بحكم طبيعة كل ثورة وأبعاد كل واحدة، لهذا تتغير وتتحول كل المعايير التي لها علاقة بالهوية والانتماء والأخلاق والقيم والفعل، ومثل هذه الأبعاد الجديدة ستعيد بلورة مجالات وامتدادات ومرجعيات السلوك وكذلك معالم الإدراك والتصورات والتمثيلات على المستوى الفردي والجماعي، ومن ثمة المفاهيم التي تتشكل باعتبارها حاوية لكل ذلك. ولقد مكنت سرعة المعلومة المدعمة بالصوت والصورة إلى انتقال العديد من نماذج السلوك من مجتمع إلى آخر وأحيانا في أوقات قياسية، والانتقال ليس له توجه واحد كما يعتقد بل هو متعدد الأبعاد والاتجاهات أي من مختلف المجتمعات ومختلف المجموعات، وعليه فإن التحولات التي تمت الإشارة إليها يمكن أن يكون منشأها غير محلي لكن ذلك لا ينقص من قيمتها ومن فعاليتها، بل أن العكس هو الذي يحدث على اعتبار أن النماذج غير المحلية يمكن أن تمثل شكلا من أشكال التمرد على بعض النماذج الفاعلة والمتجذرة في المجتمع.

إن ما يطغى على تحاليل الكثير من الباحثين في الكثير من الميادين العلمية والمعرفية سواء في علم الاجتماع أو علم النفس، هو ذلك الحنين إلى الماضي بحيث

كل ما يخرج عن الجماعة (المحلي)، عندما يتعلق الأمر بالأخذ بالدراسة والتحليل للعلاقات الاجتماعية ومنه الرباط الاجتماعي في الواقع الجزائري، يعتبر أساسا بسلامة وقوة هذه العلاقات والرباطات. وكأن الرباط الاجتماعي أصيب بالاسترخاء، الضعف وتضييق للحياة المشتركة للأفراد، إنه بذلك يشير (حسب هؤلاء دائما)، إلى الأنانية بكل أشكالها. هنا بالطبع، وكما سبقت الإشارة إليه، فنجد أنفسنا أمام عملية مزج وخلط للمفاهيم والمصطلحات: بين ما هو أناني وما هو فردي أو فرداني. ولقد وضعنا كيف أن الفردانية لا تشكل خطرا على العلاقات الاجتماعية وعلى الرباط الاجتماعي في المجتمع، وذلك لكونها (الفردانية) تشكل إحدى المكونات للعلاقات الاجتماعية المعاصرة، ومنه أحد الأبعاد والمكونات كذلك للمجتمع المعاصر. وبالتالي، وفور اتخاذهم من هذا النموذج التحليلي مبدأ، أي النظر إلى الأشياء والظواهر بمقاييس ومعايير سابقة (قديمة وتقليدية)، تصبح هذه الصورة للعلاقات مثلا، صورة سلبية وقائمة. وهكذا يصبح التحليل حسب نظرنا مبتورا وناقضا، بل أكثر من هذا بعيدا عن الحقيقة والواقع. فالقراءة والتحليل يجب أن يشمل ويحيط بالتقليدي (المحلي) والحديث (المجتمعي) وإلا النظرة والقراءة تكونان مبتورة وضيقة لشكل ولنموذج العلاقات والتصورات الاجتماعية المعاصرة السائدة في المجتمع الجزائري، لأنه إذا اكتفينا عند التحليل بمستوى واحد فقط: المستوى المحلي والتقليدي فقط، فسوف نعمل على تحريف الواقع، لأن كل فرد خاصة "الشباب" منهم يطالب بعدة عوالم وأكوان في نفس الوقت، ومنه بعدة مرجعيات وذلك لكل الاعتبارات التي ذكرناها فوق، ولأخرى مثل عامل الثقافة أو الثقافة Acculturation. إن ما يهمنا من خلال هذا التمرين السوسيولوجي، هي تلك المسائل الخاصة بالتغيرات الثقافية والتي يمكن ملاحظتها وملاستها في الوسط الأسري وذلك عن طريق المواضيع المتعلقة بالسوق الزوجية *marché matrimoniale* والعلاقات الجيلية أيضا، كل هذه المواضيع يمكن ملاستها والتطرق إليها عن طريق تجنيد مفهوم الثقافة أو التعايش الثقافي. أي بعبارات أخرى، يجب الأخذ بعين الاعتبار لعملية الثقافة هذه إذا أردنا أن نحلل مواضيع الزواج والعلاقات الجيلية، وبالتالي كل التغيرات والتحولات الثقافية التي نلمسها في الواقع الاجتماعي، أو ما يسميه عبد الحفيظ حموش بعملية تركيب الثقافة وإعادة تركيب الثقافة (2) فنجد مثلا شاب اليوم "ينفصل" عن تلك

التصورات والتمثيلات "التقليدية" "الوالدية" فيما يخص مسألة الزواج مثلا، ليعتقد "تصور ونضرة الزواج" "الرومنسي" المبني على الحب وعلى أساس علاقات خارج العلاقات الأسرية التقليدية.

فتجنيدنا لمفهوم الثقاف لا شيء إلا للتعين والمعاينة الجيدة لتلك التغيرات في الممارسات والتصورات التي تحدث وتتم عندما يدخل الأفراد في تفاعلات اجتماعية خاصة إذا علمنا بأن هؤلاء الأفراد لديهم مرجعيات ثقافية متباينة ومختلفة. فنحن إذا بحاجة إلى تحديد وتحديد لعمليات الثقاف التي يتعرض لها الأفراد خاصة وأن هذه العمليات الثقافية ما هي إلا ترجمة وبحث عن المعنى لكل التصرفات، السلوكيات والتصورات.

فالإنطلاقة من مؤشر واحدا وبعد واحد، من عالم أو كون واحد (كون من التصورات) يؤدي لا محال إلى الخلاصة بأن العلاقات الاجتماعية والرباط الاجتماعي ككل:

واقع يرثى له وبالتالي إلى النتيجة التي تقول بضعف وإندثار هذه العلاقات والروابط الاجتماعية بصفة عامة. في حين أنه من الأجدر بمكان التصريح بأن هذه الأخيرة (العلاقات) يعاد إنتاجها لكن بأشكال جديدة وحديثة من طرف جيل متطلع جيل الشباب.

فتعدد المرجعيات لدى الأفراد التي تحدثنا عنها فوق، بالإضافة إلى كونها تجنب الأفراد كل سلوك ومنه كل رباط وعلاقات أحادية وواحدة، فإنها تستدرج تعدد الرباطات والعلاقات مما يؤدي، وهذا بالرغم من فردانيتها، إلى وحدة وتوحيد الفرد بالمجتمع. وقد يرى البعض في هذا التعدد للمرجعيات والأكوان الثقافية المختلفة للأفراد تناقض وزدواج، إلا أن هذا في الحقيقة تعبير عن ذلك التداخل لـ "أنا" مع "نحن". وبكلمات أخرى إرجاع ما قد يبدو ازدواجاً Ambivalence في السلوكيات والتصورات ومنه في العلاقات الاجتماعية المعاصرة للأفراد إلى تداخل ذاتي بالموضوعي، ومنه حق الذاتي في تفسير الموضوعي وإعطائه محتوى أو شكلا بتعبير سيمل G.Simmel

في الحقيقة، يمكن القول بان مرونة وسهولة التحرك والتنقل الذي يمتاز بها الفرد المعاصر أو الفرد الحضري من مجموعة إلى أخرى، وقدرته على الانفصال من جماعته القريبة أو الأسرة خاصة، هذه القدرة هي التي تساعد هذا الفرد المتفرد *l'individu individualisé*، على أن يحدد موقعه ضمن مجموعة أو جماعة، وفي نفس الوقت تجعل منه فرد على شخصية مستقلة وغير تابعة.

وعلى ضوء ما جاء معنا إلى حد الآن، يمكن طرح التساؤلات والاستفسارات التالية: أليس من الأجل إعادة نسج لتلك الأبعاد الاجتماعية والثقافية "التحليلية" ومحاولة إبراز والإفصاح عن الكيفية التي تبني (تكون) وتنتشر على أساسها القيم والمعايير الثقافية؟ كل هذا في ظل ظهور وبروز جيل جديد متطلع، خاصة ما يخص يعني تجربة هذا الجيل المتمثلة في كل ما هو انتقالي وكل ما هو متحرك (ديناميكي)، والذي يعتبر في الحقيقة أساس ومصدر تلك الإبداعات والتصورات الثقافية المتعددة، ومصدر قيم ومعايير مختلفة ومنه تلك الإعادة في النظر في رسم وتحديد الحدود والمسارات الجيلية. هذا ما يدفعنا إلى القول بأننا بحاجة ماسة إلى علم الاجتماع يضاف على تلك الأعمال التي قام بها كارل مانهايم K. Manheim حول الأجيال والتغير الاجتماعي.

وعلى هذا الأساس، ألا يمكن إعتبار الجيل الجديد (جيل الأبناء المتطلعون) كمجموعة اجتماعية تتجاوز في تكوينها وتركيبها كل المرجعيات الكلاسيكية؟ أي أن هذا الجيل الجديد، هو ذلك الجيل الشاب الذي يعمل على بناء ثقافة (تصورات) "شابة"، ومنه قيم ومعايير ثقافية جديدة والتي تحمل أو تعبر عن منطق اجتماعي متميز مؤكداً بذلك مبدأ الاستقلالية أي التأكيد للذات، عوض تلك القيم الاجتماعية المرجعية التي تخضع للسلطات التقليدية (السلطوية).

فالنموذج السلوكي والعائلي الذي قد يسمح لنا بقراءة وتحليل واقع شبكة العلاقات المعاصرة وعالم التصورات في الجزائر المعاصرة، هو ذلك النموذج الذي يسمح للأفراد ويوفر لهم الشروط والظروف الموضوعية للتعبير عن الذات داخل جماعات ومجموعات عديدة، وضمن مرجعيات متعددة. هذا ما قد يجنبنا الوقوع في نظرة ضيقة للأمور، ومنه تجنب الأحكام القيميّة، وبالتالي تجنب إعطاء نظرة غير كاملة وغير وفيّة عن الواقع كما هو ومنه تجنب كذلك الحديث عن

بحوث محاولة اقتراب جديدة لتفسير العلاقات الاجتماعية والرباط الاجتماعي للواقع الجزائري المعاصر

ازدواجية في السلوكات والتصورات. فالنموذج كما صورناه وكما نراه، سوف يسمح لنا بتناول سلوكات وتصورات الأفراد على أنها سلوكات وتصورات "طبيعية" و "عادية"، وتفادي بالتالي الحكم عليها بالسلب أو الإيجاب. فالنمط الثقافي الخصري الذي يصبغ العلاقات الاجتماعية ومنه الرباط الاجتماعي في الواقع الاجتماعي الجزائري هو من جهة ذلك النمط الذي يرمي إلى التوفيق بين فردية ومحلية ملموسة، ومن جهة أخرى عالمية هي الأخرى أقل تجريدا. بمعنى آخر، أن النمط يرمي إلى الحفاظ وذلك بالرغم من عوامل العولمة وآثارها الكبيرة، خاصة ما تعلق بالثورة المعلوماتية، الحفاظ قلت على تلك الفردانية المتميزة للأفراد واحترامها.

وكما جاء عند الكثير من المفكرين أمثال فرنسيس فاروجيا F.Farrugia (3)، فإن الرباط الاجتماعي في المجتمعات المعاصرة يعاني من أزمة، وما هذه الأزمة إلا أحد العناصر المكونة لهذا الرباط الاجتماعي، وفيما يخصنا في الواقع الجزائري عامة، وما يهم دراستنا الحالية خاصة، فهدفنا توضيح l'illustration النمط أو النموذج التحليلي الذي قد يساعدنا على القيام بقراءة لواقعنا، وتجنب الوقوع في مثل هذه الأحكام حول الرباط الاجتماعي أو العلاقات الاجتماعية ونعتها أو وصفها بأنها تعاني من أزمة بحجة التخلي أو الابتعاد عن القيم والتقاليد، وبالتالي بسبب أو بتوجيه اللوم كذلك لتلك العالمية المفرطة والمجردة لهذه العلاقات. فالأزمة"، إن كانت هناك أزمة للعلاقات والتصورات الاجتماعية، إنما هي سمة المجتمعات الحديثة، كما يؤكد على ذلك أ.قيدنس (4). وبحكم أن المجتمع الجزائري كسائر المجتمعات الانتقالية، يمر بمرحلة انتقال وتحول من نمط اجتماعي تقليدي على نمط اجتماعي حديث.

وبحكم أن عملية الانتقال هذه لم تكتمل بعد Processus de transition inachevé، فمن السهل أن ينقاد الباحثين وبصورة تلقائية إلى الحكم على هذا النموذج الذي لم يستقر ولم يستقم بعد un système en cours d'installation، والإقرار بأنه نموذج مزدوج ومتناقض أو العمل على تصنيفه في خانة النموذج علائقي تقليدي (محلي/جماعي) بالنسبة للبعض أو على العكس، يصنفه البعض الآخر في خانة النماذج العلائقية الحديثة (المجتمعية/العالمية).

وإذا ما رجعنا إلى ذلك النموذج والتصور النظري الذي وضعه فردناند تونيز سنة 1887، والذي يشكل أحد أعمدة علم الاجتماع الكلاسيكي، نجد بأن هذا المأزق أو الطريق المسدود *impasse*، أمر سهل تفهمه. ونجد أن النموذج التطبيقي لعالم الاجتماع الألماني ف. تونيز المعروف بثنائية المتضادة التي أسسها والتي تتمثل في مواجهة نمطين من المجتمعات، نمطين من الروابط في كتابه المشهور "الجماعة والمجتمع" (1887) *communauté et société* نموذج جدير بالاهتمام "فالمجتمع" يعبر عن الشكل الحديث للأفراد والمجتمع. أما "الجماعة" تمثل ذلك النموذج التقليدي الشمولي أو الكلي للمجتمعات *Les sociétés holistes* ويتمثل شكلها المصغر في الأسرة بما تحتويه من علاقات بين الأم وأبنائها، بين الزوج والزوجة، بين الأخوة الخ... فبالنسبة لتونيز، تعتبر الأسرة "الخلية الأساسية للمجتمع". فالأسرة ترمز إلى ذلك الرباط الاجتماعي الخاص بالجماعة وذلك يرجع إلى تلك الروابط الدموية التي لا تتحكم فيها إرادة الأفراد. ويقول في هذا الصدد تونيز بأن "الحياة الأسرية هي القاعدة الأساسية للحياة الجماعية". (5)

فنحن لا نختار المجموعة التي نولد بها. ويضيف تونيز بأن جماعة الدم تتطور لتصبح جماعة تواصل وترابط *communauté de lien*: القرابة، البيئة المحيطة والمدينة الخ... فالأرض أو المجال (الفضاء) إذا يشكل بالنسبة لتونيز مرحلة ثانية لتكون الجماعة. (6). ويمكن التمييز بين ثلاث أنماط من السلطة في الجماعة: إكرام واحترام السن، القوة، وكرامة الحكمة، العقل والفكر. كل هذه الكرامات أو الخصال نجدها بالطبع متواجدة ومجتمعة عند الأب، بحيث عندما يتعلق الأمر بتسيير شؤون أفراد أسرته فهو الأمر، الحامي والمسير. فالمكانة الترتيب (في الجماعة إذا) تحسب أكثر من الكفاءة الفردية. وبهذا، يعتبر الأب إذا العنصر الأساسي والمركزي للأسرة. هذا ما يخول له صفة الحامي لوحدة المجموعة والجماعة. فالحياة في الجماعة تنظم على أساس المكانة التي يحتلها كل فرد ضمن المجموعة (الأسرة) في إطار مجموعة تراتبية أي مجموعة تخضع إلى ترتيب اجتماعي. هناك بالطبع قوي أخرى تساعد على انسجام ووحدة الجماعة مثل العادات والتقاليد، والذاكرة. والمعنى الذي تأخذه هذه الأخيرة أي الذاكرة حسب فرد يناند تونيز هي: "تشير إلى كل الذكريات التي تم تعلمها، المرور بها وتجربتها، والتفكير فيها (...). فهي بالتدقيق فكر عملي". (7)

أما النموذج المثالي المقابل "للجماعة" هو "المجتمع"، الذي يحدده ف. تونيز بقوله بأن الأفراد فيه "غير مرتبطين بالرغم من كل انفصال، وهم (على العكس) في المجتمع منفصلين بالرغم من كل ارتباط و اتصال". (8)

فكما يمكن ملاحظته فإن الصعوبة و مشكلة المجتمعات الحديثة التي تعيش تحت نظام أو نمط "المجتمع"، يظهر ويبرز لأنها تتركب من أفراد هم في البداية منفصلين، فهم يختارون أو يرفضون الارتباط. عكس هذا، نجد في المجتمعات الشمولية أو الكلية بحيث يكون فيها الأفراد منذ ولادهم أعضاء ضمن مجموعة، مما يجعل من الرباط lien معطى منذ البداية، في حين أنه في النمط المجتمعي يبقى..... هذا الرباط ينتظر تشكيله وبناءه في ظروف وشروط غير مضمونة، بما أن كل "فرد يهتم بنفسه وكل ذلك في إطار وفي -حو مليء ومشحون بالضغوطات بين هؤلاء الأفراد". (9)

ومن خلال قراءتنا لما جاء مع فرديناند تونيز، نجد أنه يؤكد على أولوية وسيطرة (هيمنة) الرباط الجماعي lien communautaire على الرباط المجتمعي lien sociétaire حيث يرى بأن "الجماعة هي الحياة المشتركة الحقيقية والمستديمة، المجتمع هو زائل (...). وبالتالي يمكننا أن نتفهم الجماعة كنظام (عضو) حي، أما المجتمع فهو هجين وخليط آلي (ميكانيكي غير طبيعي)". (10)

وإذا ما رجعنا إلى الواقع الجزائري على ضوء النموذج التونيزي، وتبعاً كذلك للملاحظات المستقاة من الواقع اليومي للأفراد، نجد بأن النموذج الثقافي الحضري الذي حاولنا شرحه فوق يتموقع بين نموذجي فردناند تونيز، بحيث نجد أن العلاقات المجتمعية ومنه الرباط المجتمعي حتى وإن لم يحظ بالأولوية، وحتى وإن لم يحظ بكامل الثقة عند الأفراد و يقينهم، نجد بأن العلاقات "الجماعية" ومنه الرباط "الجماعي" يبقى مسيطراً على عقول الأفراد ومنه المخيال الاجتماعي. وبعبارة أخرى نقول بأن القلب والحين يتموقعان على حدود "الجماعة"، في حين نجد بأن العقل يتموقع على حدود "المجتمع". هذا بالطبع ما قد يفسر ذلك الحين إلى الجماعة في ظل نظام "المجتمع". وبالتالي نجد بأن المخيال الاجتماعي يبقى يفضل وينجذب إلى الجماعة (إلى الماضي)، وبالتالي يفضل على المجتمع، لماذا؟ لا شيء لأن الانجذاب على الجماعة رمز لتلك العلاقات الحميمة، ورمز إلى ذلك الأمن

والآمان والاستقرار الذي توفره الأسرة كما يشير إلى ذلك العالم الاجتماعي الفرنسي المعاصر ج.ك. كوفمان J.C.Kauffman (1998).

إن الطرح الجديد الذي نراه مجدياً ومنصفاً للنموذج أو للنمط الثقافي الحضري عندما يتعلق الأمر بوصف هذا النمط والتعليق عليه - خاصة ما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية والرباط الاجتماعي ككل، هو ذلك النموذج الذي تعدد بداخله التصورات والمرجعية لدى الأفراد بدون أن تكون هذه الأخيرة متناقضة أو متضاربة. فتعدد التصورات والمرجعيات لا يعني بالضرورة التناقض والازدواج. من هنا يمكننا أن نعيد الطرح لا على أساس نمط علاقات اجتماعية ومنه رباط اجتماعي مزدوج ومتناقض لأن الأفراد المعاصرين، إن صح التعبير، لا يمكن أن نقول بأنهم يمرون ويجتازون بأزمة تواصل، أو انفصال اجتماعي قوي، لكن ما يجب التأكيد عليه هو أن هؤلاء الأفراد يعيشون ويعيشون هذه العلاقات الاجتماعية وهذا الرباط الاجتماعي بصفة فردية ومتميزة. وهذا لا يعني بالطبع اللامبالاة الاجتماعية Indifférenciation sociale، خاصة وكما شرحناه فوق، إذا علمنا أن الحنين إلى الجماعة، إلى الماضي هي السمة الأساسية في علاقات الأفراد الاجتماعية، وهذه العودة أو الزيارة إلى الماضي في كل مرة، هي في الحقيقة بمثابة التأشيرة والشرعية التي لا بد من إضائها على كل رباط أو علاقة لكي تحضي هذه العلاقات بالقبول وتحقق الانسجام الاجتماعي. فالفردية والتميز لا تعنيان الأنانية ولكن تأخذان معنى الحرية في التصرف، السلوك والتصور في إطار المرجعية الجماعية والذي يتم بدوره ويتحقق في إطار من المفاوضة négociation والترتيب بين "الجماعة" و"المجتمع".

ويمكن القول في الأخير، بأن سلامة العلاقات الاجتماعية ومنه الرباط الاجتماعي وانسجامهما وتوازئهما، إنما يكمن في ذلك الرباط وتلك العلاقات التي تنسج شبكتها على أساس عدة خيوط، أي بدخول الأفراد في علاقات مع أفراد آخرين في إطار جماعي/محلي (أسري)، ومجتمعي كبير.

إن النموذج الثقافي الحضري ومنه النسق العلائقي الحضري الجزائري المعاصر هو نمط ونموذج في طور التشكيل والبناء، يمكن التعبير عنه بأنه نموذج "مجتمعي" حديث، ذو صدى à raisonance "جماعي"، عشائري وتقليدي. إننا نحضر إذا إلى بروز نمط جديد من الحياة الاجتماعية: النمط الحضري، البيئي intersubjectif / Entre-deux

ملخص للمقال:

سوف نحاول من خلال هذه المساهمة المتواضعة أن نتناول بالدرس والفهم النمط الحضري الجديد للعلاقات الاجتماعية و الرباط الاجتماعي في المجتمع الجزائري المعاصر على ضوء نموذج الثنائيات المتضادة

لتونيز ودور كايم التي نرى بأنها الأكثر ملائمة لتحليل المجتمع الجزائري الحالي، بالإضافة إلى هذا سنحاول أن نبرز كذلك أهمية النظريات السوسيولوجية المعاصرة في تحليل وقراءة العلاقات الاجتماعية على ضوء المتغيرات الجديدة التي يعرفها المجتمع الجزائري .

إن النموذج الذي نقترحه هنا يركز على مبدأ رفض مزدوج : مبدأ يرفض التفسير على أساس الكل المحلي (التقليدي) ، و مبدأ رفض على أساس التفسير الكلي على أساس مجتمعي / تعاقدية بحث، من هنا جاء مقترحنا الذي سنعرضه في هذا المقال.

Résumé:

Nous essayerons dans le présent article d'étudier le nouveau mode de "lien social" , et la question des relations sociales ou " le mode urbain " qui est en phase d'installation dans la réalité algériennes contemporaine, à travers le modèle tonniesien et durkheimien sur la base de concept antinomiques tels que : communauté et société ... Nous tenterons de montrer comment ces modèles classiques combinés avec les modèles théoriques contemporains peuvent nous aider à lire d'une manière plus objectives les relations sociales dans l'Algérie contemporaine. Nous expliquerons aussi que le modèle que nous proposons repose sur un double refus :

refus d'une explication sur la base du tout communautaire refus d'une explication sur la base du tout sociétaire.

الهوامش:

(*) لكن لا يعني هذا أننا سنطبق نموذج تونيز هكذا بحذافيره، بل سيعاد النظر في تلك المفاهيم ("الجماعة"/"المجتمع") كي نجعلها تتكيف وتتأقلم مع الواقع الجزائري المعاصر.

(*) A.Guiddens; The third way. London, 1998.

(1) ibid, p:70.

(2) A.Hammouche; Les rapports de génération et l'action public dans les quartiers d'habitat social. Lyon, sans date.

(3) F. Farrugia; Crise du lien social. Paris, l'Harmattan, 1993.

(4) A.Guiddens; Les consequences de la modernité. Paris, l'Harmattan, 1994.

(5) F. Tonnies; Communauté et société. Paris Trad.francaise 1970.1^{ère} edit.: Gemeinschaft und Gesellschaft, 1887, p:277.

(6) ibid, p:56

(7) ibid, p:158

(8) ibid, p:82

(9) ibid, p:82

(10) F.Tonnies; ibid, p:48.

المراجع:

- 1) G.Bajoit; Pour une sociologie relationnelle. Paris, P.U.F, 1992.
- 2) F.Dubet; Sociologie de l'expérience. Seuil, 1995.
- 3) F.Farrugia; Crise de lien social. Paris, l'Harmattan, 1993.
- 4) A.Guiddens; Les conséquences de la modernité. Paris, l'Harmattan, 1994.
- 5) A.Guiddens; The Third way, London, 1998.
- 6) A.Hammouche. Les rapports de génération et l'action publique dans les quartiers d'habitat social. Lyon, sans date.
- 7) F.Tonnies; Communauté et société. Paris, Trad. Française 1970, 1ère édit.
- 8) Gemeinschaft und Gesellschaft, 1887.